التركيب النفسي للعهد الأسدي

د. كمال اللبواني

عندما حصل انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ ، فر خالد العظم وكان رئيسا للحكومة حينها إلى لبنان على غير عادته ، فسألته الصحافة هناك : ليس من عادتك أن تفر خارج سورية عندما يحصل انقلاب عسكري ضدك فهذه ثالث مرة ؟ ، قال في المرات السابقة كان من يقومون بالانقلاب هم ضباط أبناء عائلات نعرفهم ونعرف أسبابهم للانقلاب ، هذه المرة هؤلاء أشخاص خطرين لا نعرفهم ولا يعرفون ماذا يريدون ، غايتهم السلطة بحد ذاتها ، وسيفعلون أي شيء للاحتفاظ بها .

صحيح أن الاستبداد واحد وأن المستبدين والطغاة متشابهون ، وهو ما تحدث عنه عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد منذ أكثر من قرن ، لكننا هنا لا نشرح هذهالبنية السياسية للإستبداد ، بل نركز على البنية النفسية للمستبد وتأثيرها على سلوكه وقراراته وخياراته التي يتخذها ، شاملين فترة حكم آل الأسد لسورية التي دامت ما يزيد على ٥٠ عاما ، كنظام أسري استولى على الحكم بالانقلاب العسكري تحت خيمة حزب البعث سيء الصيت ، واحتكر ذلك الحكم لنفسه بالتصفيات والافساد ، وحول الجمهورية لسلطنة وراثية ، شاركت في هذه الحقبة شخصيات من العائلة كأسرة حاكمة تمايز أفرادها ببنيتهم النفسية ، وأحيانا اختلفوا فيما بينهم وتصارعوا أيضا.

أي مركب نفسي لشخص يتشكل بتفاعل عاملين : عامل تكويني داخلي يتعلق بالمورثات والهوية ، وعامل محيطي مكتسب يتعلق بالبيئة والنشأة والظروف ، حتى إذا وصل هذا الشخص لموقع السلطة في دولة الاستبداد طبع هذا المركب النفسي البنيوي بلونه سلوك المستبد ، وأعطاه خصوصيته وتمايزه عن غيره ممن حكم في السلطة ... وهو ما جعل خالد العظم يفر من انقلاب عسكري معين ولا يفر من غيره ، فخوفه لم يكن من الاستبداد العسكري بل من شخص ونوعية المستبد ودوافعه النفسية واستعداده لارتكاب الجرائم .

اللا انتماء

لقد نشأ حافظ الأسد في أسرة فقيرة جدا وكبيرة العدد تقطن القرداحة في الساحل السوري ، وهو الولد الأول للزوجة الثانية التي اضطرت لترك منزل زوجها للبحث عن طعام ومأوى لها و لولديها حافظ ورفعت ... ويبدو أنها لجأت لسليمان المرشد فترة من الزمن قبل إعدامه ، وهو قد يكون سبب لقب حافظ الذي عرف به بداية (أبو سليمان) ، والذي ألغي في مرحلة متأخرة من الثمانينات ليلقب باسم أبو باسل ولده الأكبر ... ويحكي الشعب السوري نكتة لطيفة عن تلك الحادثة: أن أحد المغتربين القادمين لزيارة أهله عندما نزل سلم الطائرة ركع وقبل الأرض ودعا لأبو سليمان بطول العمر والبقاء لكي لا يتهم بأنه معارض ، فركله رجل الأمن وقال له أبو باسل يا حمار ، فنظر به المغترب وهمس يعني هداك حل عن طيزنا !!!

اضطرت ناعسة للعمل خادمة في منزل أسرة دمشقية لتعيل أولادها ، يعتقد أنها من بيت الكزبري ، ولم يسمحوا لها بجلب ولديها اليافعين للسكن معها ، وهكذا بقي الولدان بعيدين عن أمهم ، وغير مرحب بهم في منزل والدهم في القرداحة المحكوم من أولاد الزوجة الأولى ، وهو ما سيشكل لديهما شعورا بالكراهية ، ودوافع عدائية تجاه الجميع ، وعدم الشعور بالانتماء لأي حاضنة اجتماعية أو وطنية ، ويولد عندهم رغبة جامحة في الوصول للسلطة ليس بهدف رفع الظلم ، بل أولا من أجل الانتقام واذلال من أذلوهم ، ولهذا فرت عائلة الكزبري من دمشق إلى فيينا بمجرد تسلم حافظ (ابن الخدامة) قائدا للقوات

الجوية ، وبقيت ممتلكاتهم مهجورة في دمشق أما منزلهم الجميل في الزبداني الذي كان حافظ يزور والدته فيه أحيانا ، فقد استولى عليه وجعله منزله الصيفي بعد أن ضم إليه مجموعة عقارات مجاورة ، وهم اليوم شركاء اقتصاديا عبر نبيل الكزبري الذي يحظى بمكانة خاصة ليس لأنه ماسوني أيضا ، بل لأنه يجسد بالنسبة لحافظ انتصارالخادمةعلىالمخدومة .

وعندما حضر وفد دمشقي كبير لقصر حافظ عام ١٩٨٦ يشتكي للقائد توقف الاقتصاد بسبب السياسات المالية الجديدة (وقف الاستيراد تماما من دون تصدير موازي ، وابداع ما سمي بالدولار التصديري)، وبعد أن تناوب كبار تجار ومشايخ دمشق على الشرح والمدح ، تذكر حافظ والدته في غرفتها المتواضعة تحت الدرج ، وقال لهم : تتحدثون عن الفقر ! فهل عملت نساؤكم خدامات ؟ وخرج من الاجتماع ، وتركهم بحيرة . قالوا فيما بينهم يومها هل ينتظر الرئيس أن تصبح نساؤنا خدامات ؟ ماذا يقصد ؟ ... وخرج معظمهم مدركين أنه عليهم إما الرحيل ، أو حماية ممتلكاتهم وأعمالهم بمشاركة الأسد أو مقربيه لكي لا يصبحوا فقراء وخدم ...

حافظ أسد لم ينتم لأي تيار آيديولوجي ولا لأي حاضنة اجتماعية ، بل كان ذاتيا جدا لدرجة مفرطة ، لا يؤمن بالشراكة ولا الصداقة ، علاقاته إما خادم أو سيد علاقة تسلط فقط ، يستمر مطيعا خادما حتى يتمكن وينقلب ليصبح سيدا ، بنى جل علاقاته على الولاء الشخصي العصبوي لشخصه ، ليس لخدمة المبادئ المشتركة ، بل لتحقيق المنافع الشخصية ، من دون أي اعتبار لأي قيمة أو مبدأ ، بل على حسابها .

كان الطريق الأسرع للسلطة هو الكلية الحربية ، حيث بمجرد الحصول على الشهادة الإعدادية تستطيع دخولها لتصبح ضابطا ، وهكذا نجح حافظ في دخول الكلية الحربية كضابط جوي مرشح ، بينما فشل أخوه الأصغر رفعت واضطر للتطوع بشهادته الابتدائية كضابط صف وهو ما سيشكل عنده عقدة العلم والتعليم ، ليهتم فيما بعد بالحصول على شهادة الدكتوراه (طبعا الفخرية) وتشكيل رابطة خريجي الدراسات العليا ليشبع عقدته العلمية بسلطته العسكرية ...

عائلة الأسد ليست سورية الأصل هم أحفاد شخص قدم لسورية في آخر العهد العثماني من علويي تركيا ، وربما من غرب ايران (كاكائيين ، مختلف عليه) ، لقب بالوحش ، رعاه الشيخ علي سليمان الأحمد (جد بدوي الجبل) ، مقابل الكف عن السطو على طرقات وقرى المنطقة . فمعظم العشائر العلوية كانت تنظر لأسرة الوحش/الأسد نظرة دونية ، والأسرة لا ترى في الطائفة حاضنة لهم ، ولا في سورية وطنا، وهم ممن طالب الاستعمار الفرنسي بالبقاء بوثيقة معروفة ، وحافظ لم يشعر يوما بانتماء لحضن اجتماعي محب ولا وطن أعطاه ورعاه ، بل كان يرى العداء في كل ما حوله ، وسيلته الوحيدة للبقاء في هذا الوسط المكروه ، هي الوصول للسلطة والاستبداد بها لكي لا يكون عبدا بل جلادا ، واستمداد القوة منها بمقدار ما هي شمولية ومطلقة ، حتى لو كان ذلك عبر التعاون مع جهات خارجية خدمها بأمانة على حساب الشعب السوري ... وهكذا كان طموحا للانتساب للجيش ، ليس للدفاع عن الوطن، بل ليصبح أقرب لأي انقلاب عسكري يتم تدبيره ،ومستعدا للعمل مع حزب البعث الانقلابي القروي الذي يخطط للسطو على الثروة في المدن الغنية ، بعد احتكاره للسلطة . كحزب قائد للدولة والمجتمع .

كيف يمكن لشخص لا يملك المال ولا الجاه أن يشتري ولاء التابعين لشخصه كزعيم ، إذا كان أيضا لا يملك الفكرة العظيمة التي تحرك البشر ولا الكاريزما والنبالة التي تلهب قلوب الجماهير ؟كيف سيتمكن الضابط الصغير الطموح جدا للسلطة من تجميع الجنود وصف الضباط والضباط حوله ، وكسب ولائهم المطلق ؟ لم يجد حافظ صاحب المشروع الذاتي الذي هو وصوله للسلطة من طريقة سوى الاعتماد على أحط الوسائل و أحقر الدوافع عند البشر وهي الحصول على المنافع من دون عمل وجهد ، بالرشوة والاختلاس والفساد ، كان يوفر لأتباعه الحصانة والحماية من القانون والعقوبة ، وهم يطلقون شهواتهم المنفلتة من سلطة الرقابة ومن سلطة الضمير أيضا ، مقابل تقديمهم الولاء والطاعة له ، والتي لا يستطيعوا النكوص عنها ، بسبب ارتكاباتهم التي يمسكها عليهم ، فيصبحوا مضطرين للدفاع عنه كدفاعهم عن أنفسهم ، حتى لو انشقوا عن نظامه كحال خدام الذي لم يذكره بالسوء ولا مرة حتى مات منفيا في باريس .

هذه التركيبة تفكر كما كان يفكر أولاد الفلاحين الفقراء العاملين في حقول الإقطاعي والمملوكين له ، عندما يخططون للسطو ليلا على حديقته الغناء المليئة بما لذ وطاب من الفاكهة النادرة .. فالوطن هو حقل للنهب والرعي يملكه العدو ، وليس أرضالنا تحتاج للزراعة والكد والاعتناء . يسلكونأسهل طريق للحصول على المنافع ، وهي السطو والسرقة والنهب والاختلاس ، طالما خدروا الحارس وضمنوا تعطيل القانون وأمنوا العقوبة ،

هذا التعامل مع الشأن العام ، يحطم الجماعة ويدمرها ويثير النزاعات ، وهنا يقوم القانون بدوره في ربط الحصول على المنافع بالسلوك القانوني ، وتقوم التربية بتوليد ضمير يلجم داخليا هذه النوازع الوحشية .

وهكذا عندما تغيّب سلطة القانون ، لا يبقسوى الضمير الذي يتآكل تدريجيا ، بمقدار شيوع جريمة الفساد لتصبح أمرا عاديا بل نمط حياة وثقافة عامة خارج العيب والمكروه والحرام أيضا . وهذا ما مميز العهد الأسدي كله وأودى بسورية نحو الهلاك كمجتمع ودولة أيضا .

للحصول على الدعم والتفوق على الخصوم أدرك حافظ ضرورة الاعتماد على القوى الخفية التي تتلاعب بالسلطة ، فانضم للمحافل الماسونية منذ أن برز كضابط، ثم ارتبط مع جهات استخباراتية خارجية بريطانية ثم غير بريطانية كانت تدير الشأن السوري . وانضم للجنة العسكرية التي كانت مجرد عصابة وتحالف أقلوي تخطط للانقلاب على السلطة ، وعندما وصل للسلطة منفردا بعد سلسلة انقلابات تخلص بها من أعدائه وشركائه تباعا ، فتح الخطوط مع كل أجهزة المخابرات في العالم ، وكلف ضباطه بالتنسيق كل مع دولة على حده وبقي هو المنسق العام لمصالحها في سورية ، وجعل من سورية سوبر ماركت مخابراتي دولي ينفذ مطالب الجميع من دون أي اعتبار للوطن والشعب السوري بل على حسابه دوما كجسد مستباح ، وهو ما أعطاه القوة والدعم وجعل الجميع في العالم شرقا وغربا يثقون به ويعتمدوه كرجلهم الذي ينفذ لهم ما يريدون دون تردد، (كلف علي دوبا بالتنسيق مع البريطانية ، الخولي [أستاذ مملوك وقدسية] مع الاسرائيلية ، الشهابي مع الاستخبارات العسكرية الأمريكية ، كنعان مع السي أي إي ، طلاس مع الروسية ، ناصيف مع الألمانية ... خدام مع الخليجية ...) ، واستعان حتى بضباط نازيين من الجستابو نظموا له جهاز المخابرات وأداروه ، ثم أكملت مهمتهم مخابرات ألمانيا الشرقية الشتازي ، وتصميم بناء أمن الدولة هو ذاته نسخة عن بناء المخابرات الألمانية في مرحلة الشيوعية ... والألمان النازيين والعنصريين يعتبرون العلويين أحفادهم وبقايا صليبيين ، فجنودهم الذين شاركوا في الحملات الصليبية كانوا يذهبون من دون نساء ، ويقضون جل عمرهم في تلك الجبال واستمروا على ذلك أكثر من ٢٠٠ عام ، والعلويين حتى اليوم يطلقون على أي وليد أبيض البشرة أو أشقر الشعر أو أزق العينين لقب (ألماني) .

عندما حضر حافظ مؤتمر الحزب الطارئ في عام ١٩٧٠ مع شلة من الضباط بينهم مصطفى طلاس وعلي أصلان وعلي الصالح وشفيق الفياض عن التنظيم العسكري لحزب البعث ، وكان صلاح جديد يخطط لعزله وينظر له بسخرية ، قال لهم أنظروا إلى هذا الوجه اللئيم ويشير لصلاح ، أنتم فاشلون وتحملون مسؤولية فشلكم لغيركم ، لا تعرفون كيف تحكمون ، أنا بعلمكم كيف الحكم وكيف ما نخلي حدا يتنفس عشرين سنة ، هو يقصد أن الخلافات والنزعات الأيديولوجية والمنكافات المناطقية كانت تعرض الحكم للانقلابات كل عدة سنوات ، ولبناء الاستقرار الصحيح لا بد من الاعتماد على أساس الإستبداد وهو الولاء الشخصي لزعيم ، مقابل الفساد والانتفاع ، كان يعلم تماما من أين تؤكل الكتف، وكيف يمكن بناء الاستقرار لنظام الاستبداد الذي لا مشروع له سوى السلطة والمتجسد في كل البعثيين الذين لا علاقة لهم بأي شعار يرفعونه ، فقط كتغطية لطموحهم الوحيد في السطو على الثروة كأي ابن فلاح جائع ينتظر غياب الاقطاعي ، كتب سعد الله ونوس أن انقلاب آذار بدلا من أن يمدن الريف ريّفَ المدنية ، والحقيقة أن الضباط وضباط الصف والجنود البعثيين أبناء الريف الجائع اعتبروا المدينة حديقة للنهب يملكها الرجعيون الإقطاع أعداء الوطن والعمال والفلاحين ، فاستباحوها باسم التقدمية والاشتراكية وسياسات التأميم التي صادرت أملاك الرجعيين وحتى سجنتهم كمجرمين فقط لأنهم يملكون مصنعا أو شركة انتاج ... حتى أن حافظ أصدر قرارا بمنع إخلاء أو زيادة أجرة أي سكن مؤجر في المدن طيلة عهده ، مما جعل هذه المنازل ملكية دائمة لمن استأجرها ، مع تدني قيمة العملة . عندما وصل حزب البعث للسلطة لم يكن هناك اقطاع فقد تم تفكيكه في عهد عبد الناصر ثم الانفصال ، وهو ما سمح لأبناء الفلاحين بمغادرة الريف والتطوع في الجيش والأمن ومؤسسات الدولة المصابة بالتسرطن باسم الحداثة .

حافظ أدرك جيدا هذا التركيب النفسي داخل مؤسسة الجيش والحزب ومؤسسات الدولة واستغله أحسن استغلال ، لذلك تفوق على الجميع وأقصاهم تماما مع انقلاب ١٦ تشرين ١٩٧٠ ، عندها كان صلاح جديد الذي ينسق مع المخابرات الأمريكية مطمئنا ولا يستشعر الخطر من حافظ فليس حوله سوى شلة لصوص صغار وضيعين يجتمعون على لحس الصحون وسرقة طعام المطابخ وفراريجها ، ولم يكن يدرك أن الأمريكان قد تخلوا عنه وقرروا تسليم البريطانيين الملف السوري لسبب بسيط أنه بعد هزيمة ٦٧ اعتمد أسلوب حرب التحرير الشعبية والعمل الفدائي بدلا عن الجيش النظامي الذي فر من المعركة من دون حرب في مصر وسورية ، وهذا ما كان يعترض عليه حافظ بشدة ، لذلك تغيرت بقدرة قادر ولاءات معظم قادة الوحدات المحيطة بدمشق من صلاح لحافظ ، فسقط صلاح بالضربة القاضية. وبدل تنفيذ مقررات المؤتمر بعزل حافظ وطرده من الحزب اعتقلهم جميعا وأصبح سيدا وحيدا لسورية و ألغى دور حزب البعث عمليا منذ انقلابه الذي سماه بالحركة التصحيحية ، وهو اسم معاكسلمضمونه تماما ، فقد كانت تلك الحركة منصة انطلاق لأكبر ورشة فساد وافساد ستشهدها سورية تستمر على مدى نصف قرن ، كانت نتيجتها هذا الحال الذي وصلت إليه الآن ، بعد أن شهدت أرضها أقذر أنواع الحروب الأهلية التي عرفها التاريخ .

الطائفة

ما كان لآل مخلوف في بستان الباشا أن يقبلوا بتزويج ابنتهم لابن الوحش غير معروف الأصل حتى لو وضع النجمة على كتفه ، لكن أنيسة شردت معه بحسب التعبير المحلي للخطيفة ، مما عرضه لعقوبة عسكرية ، ولم يكن سهلا اقناع أهلها بقبول تلك الزيجة حتى أصبح طيارا في عداد القوات الجوية ، وأثناء الوحدة بين سورية ومصر نقل للعمل في مصر كمعظم ضباط الجيش الذين خشي عبد الناصر قيامهم بانقلاب على انفصالي في سورية ، يومها شكل داخل الجيش صلاح جديد القومي السوري الهوى (علوي) مع حافظ الأسد البعثي اللامنتي(علوي؟) ما يسمى باللجنة العسكرية (الطائفية) أيام الوحدة مع مصر بتخطيط مخابراتي أمريكي ، وبعضوية محمد عمران (علوي) ، وسليم حاطوم (درزي) ، وعبد الكريم الجندي (اسماعيلي) ، وكلهم كانوا ممن يعارض قرار الوحدة مع مصر ضمنا وتسليم السلطة للغرباء ، كلف صلاح رفيقه حافظ الذي كان شديد الطاعة لصلاح الأقدم منه والأكثر ذكاء وقدرة ، كلفه بالتنظيم العسكري ، واهتم هو بالتنظيم المدني ، وقد تعاونا فيما بعد على استبعاد عمران ثم تصفيته لأنه متفوق عليهم اجتماعيا وفي الطائفة ولم يوافق على أعمال خسيسة يقومون ، والتي ستتكرر فيما بعد كاقتحام المساجد بالقوات المسلحة التي نفذها حاطوم ، وبعد ذلك التآمر على حاطوم ذاته بعد توريطه ، والذي قام باعتقال القيادة القطرية في مدينة السويداء ، ثم فر للأردن وعاد بوساطة وضمانات سرعان ما خانوها فاعتقل وتم تعذيبه وتكسير أطرافه واعدامه في مكتب عبد الكريم الجندي بحضور واشراف رفعت شقيق حافظ ، تلك الحادثة جعلت عبد الكريم الجندي مسؤول الأمن متشككا بهذه العصابة فبدأ التدقيق والبحث عن ارتباطاتهم الخارجية وقد صرح بشيء عن هذا أمام بعض مقربيه في قيادة الحزب الذين وشو به ، ليحاول الفرار عندما علم بصدور أمر اعتقاله وتكليف رفعت بذلك ، فحاول اللجوء لثكنة عسكرية قريبة ، لكن رفعت سبقه وقطع طريقه وأعدمه ، وقيل أنه انتحر في مكتبه يومها، وهو ما سيتكرر كثيرا فيما بعد (محمود الزعبي ، وغازي كنعان) ، وهكذا قصقص حافظ كل المحيطين بصلاح بالتنسيق معه ، وأصبح جاهزا لإزاحته من دون أن يبدي أي علامة على نيته تلك ، حتى يوم اعتقال صلاح لم يكن يستطيع التصديق أن حافظ الذي يراه غبيا وليس وراءه أحد غير حثالات الضباط في الجيش ، يمكنه أن يخطط لازاحته ، لكن كما نوهنا معظم قادة الوحدات المحيطة بدمشق غيرت ولاءها بقدرة قادر ليلة انقلاب حافظ على جديد الذي قضى بقية عمره في السجن ثم مات مسموما فيه بالتزامن تقريبا مع موت باسل ابن حافظ في حادث مدبر عند مدخل المطار . وهو ما يشير لبداية مخطط جديد للسلطة في سورية .

بنى حافظ نفوذه بالجيش على أساس واحد هو الولاء الشخصي له من قبل كل الفاسدين والفاشلين وضعاف النفوس والكرامة وحرامية الفراريج وكوبونات الوقود وبياعي الإجازات ، مقابل حمايته لهم ، فهو لا يملك الفكر ولا المال ولا الكاريزما للقيادة ، ولا يملك أي من مقومات علاقات الصداقة ، لكنه لم يكن يتخلى عن أزلامه أبدا بل كان كريما معهم دوما متابعا لاحتياجاتهم شديد الرقابة عليهم ، بشرط الطاعة ، فقد كان يستخدم صلاحياته لتعطيل نظام المحاسبة والرقابة ، ويحتفظ بالأضابير كسيف مسلط يستخدمه عندما يشك في الولاء فقط ، وأحيانا يقوم مدير مكتبه بوضع ملفاتهم أمامهم ليطلعوا عليها قبل دخولهم على حافظ صاغرين منبطحين ، وسوف يستمر في جمع من حوله بهذه الطريقة لتصبح عنوانا لنظامه (الولاء مقابل المنافع غير القانونية) دور السلطة الطاغية هو حماية الفساد لتبني قواعدها من الفاسدين، وتؤسس عصبيتها على الفساد والخيانة . تصيد حافظ كل أتباعه بسنارة الفساد ، وضمن ولاءهم بتخزين ملفاتهم القذرة ، وتعمد ابراز شخصيات سنية دوما لجانبه لانكار سلوكه الطائفي ، لكنه أبدا ما كان ليتعاون أو يقرب أي شخص على درجة من الضمير أو الذكاء ، فامتحان القبول عند حافظ هو الفساد الإختلاس والرشوة ، وكتابة التقارير بأقرب المقربين ، حتى يكاد يستحيل أن تجد فيمن حوله شخص واحد نزيه أو لديه كرامة أو حس وطني أو حتى ذكي وغير ساذج ، ولم يجتمع حولة ويتقرب منه سوى التافهين والمنحطين والفاسدين والرخيصين الذين يكتبون التقارير بأمهاتهم ، والمستعدون لخيانة أي شيء مقابل شهواتهم الأنانية ، والشرط الأول لقبول الولاء هو قبول الإهانة علنا والتي كان يتعمدها حافظ ليرصد ردات الفعل التي تؤكد عدم وجود كرامة ، كونها الخطر الأكبر عليه وعلى نظامه ، وهكذا كان حافظ هو الأقدر والأقوى على تجميع الفئات البخسة حوله بسبب فساد الثقافة والسياسة ، وقد أصبحت لديه قدرة عجيبة على اكتشاف هذه النوعية واستعمالها في مناصب الدولة ، كنا نستغرب من أين يأتون بهذه النوعيات وكيف يكتشفونها .. فالمطلوب منك لكي تجد منصبا رفيعا في الدولة فقط أن تثبت أنك نذلا ، سرعان ما تمارس النذالة سرعان ما تجد المخابرات يتصلون بك لتعيينك في منصب لم تحلم به ...

فبسبب فساد مفهوم السياسة السائد يومها (كوسيلة للثروة والسطوة) ، وبسبب استخدامه سلاح المنافع الشخصية أساسا ، وعدم تصديق كذبة الشعارات الأيديولوجية المنفوشة الريش ، استطاع حافظ

هزيمة كل التيارات السياسية والمذهبية التي صدقت تلك الآيديولوجيات ، باستخدام سلاح الاختلاس والرشوة الفعال جدا وما يزال ، بل هزيمة كل القيم والنظم والقوانين ، وهو ما سيضع الدولة كلها على طريق الفشل والافلاس والخراب عاجلا أم آجلا ، والبقاء في تلك الحال حتى التخلص من ثقافة الفساد ،

صعد حافظ لمنصة الحكم بجهده الشخصي وأسلوبه المتميز فيمستوى انحطاطه ، وفي جمع الولاءات حوله ، وبمساندة خفية من أجهزة غربية كما أسلفنا كانت دوما تسهل ارتقاءه في سلم الترفيعات وفي استلام المناصب الحساسة ، وتقديمها له التحذيرات والمعلومات عن أي خطر أو مطب قد يقع به ، وهكذا صعد حافظ معتمدا على الفاسدين ناشرا الفساد على أوسع نطاق ليوسع بواسطته قاعدة الحكم التي يقوم عليها ، وقد تميز هذا النظام الذي أسسه باستحالة الانقلاب عليه من الداخل ، حيث لا يوجد رجل ثاني وثالث ، بل إله مقدس وعبيد قذرين في خدمته ، لا يجمعهم جامع سوى دناءتهم وأنانياتهم التي تجعلهم يتطوعون تلقائيا لسحق كل من يفكر بالانقلاب على إلههم ، وعندما مات حافظ اضطر ذات الفريق المحيط به لاستنساخ حافظ جديد عبر ابنه الذي كان عليه لعب ذات الدور ، وعندما فكر الولد المستنسخ بتغيير قواعد السلطة ، والانتقال لنظام جديد لا يقوم على الفساد بنصيحة الدول التي رحبت به وساندته وبشكل خاص جاك شيراك ، سرعان ما اجتمع حيتان الفساد في فيلا لعبد الله الأحمر ، ووجهوا رسالة واضحة لبشار تقول له لا تستطيع التضحية بنا ، نحن من أتينا بك للسلطة ونحن من نستطيع عزلك ، وما عليك سوى الاستمرار في نظام والدك كما كان ، فأي تغيير يعني انكسار الزجاج وانفراط النظام ، فانكفأ الولد عن وعوده بالإصلاح ، وتراجع عنها جملة وتفصيلا ... ووضع خطوطه الحمر الخمسة المعروفة ،

تعامل حافظ مع الجميع من فوق وباحتقار مذري ، بما فيهم العلويين وآل مخلوف وخير بيك والخير وناصيف وكنعان ودوبا والعلي والأحمد ... ، فقد اعتبرهم مجرد خدم لحذائه ، وكذلك تعامل آل الأسد مع طائفتهم كلها ولم يترك حافظ بينهم من يجرؤ على مجرد التفكير بعدم تأليهه ، لكنه وجد بينهم نسبة أكبر ميالة للولاء له بشروطه السابقة نتيجة الفقر والجهل، مستفيدا من ذكريات الإضطهاد أيام العثمانيين ، فاعتمد على عصبيتهم الطائفية في السيطرة على أجهزة الدولة وضبطها ، وهكذا بدأت الدولة منذ صعود البعث للسلطة مسارها الطائفي كعصابة أوليغارشية داخل الدولة تتحكم بها ، هذا المسار ازداد مع حركة شباط ، وطغى مع وصول حافظ ، وارتبط الفساد الذي بدأ من فوق وامتد نحو الأسفل بصبغة طائفية أيضا أي بمقدار الحصة الطائفية من السلطة والهيمنة على الثروة ، لكن التسيب والإهمال بدأ بالتوازي من القاعدة وامتد هو الآخر نحو الأعلى ، وتحولت الدولة ومؤسساتها لأكبر ورشة نهب واختلاس وتسيب وتهرب وتهريب وسوق سوداء ، شارك فيها الجميع ، فالناس على دين ملوكهم . لم يتعامل حافظ مع بقية الطوائف (طالما كانت تقبل ولو شكلا بحكمه)بذات القدر من الإذلال والاحتقار الذي تعامل به مع طائفته التي اعتمد عليها ، و لكنه مارس الإجرام بحق السنة الذين ناصبوه العداء ، ونكل بهم عندما رفعوا السلاح في وجهه . وحاول جاهدا تشكيل تحالف خفي لجميع الأقليات في مواجهتهم أيضا مستغلا ذكريات الحكم العثماني متجاهلا ذكريا الانتداب الفرنسي الذي كان حكم الأقليات بامتياز . وهو الحلف الذي اعتمد عليه بشار فيما بعد في مواجهة الثورة .

حافظ لم يكن يحب المال ولا المظاهر ، بل عاش حياة بسيطة ، ولم يتملك عقارات باسمه ، ورفض طويلا الانتقال لقصره الجديد ، فهو يعشق السلطة وفقط السلطة ، المال مجرد وسيلة لشراء الذمم والولاء ، كلما احتاج له كان يطبع عملة ، مما أحدث تضخما أدى لانهيار سعر الصرف ووصوله ل 50 مقابل الدولار ، في بداية الثمانيات ، عندها توقف عن طبع العملة ، وفكر في تجميع الثروة الشخصية بنصيحة من زوجته وأخوها محمد اللذان يعرفان قيمة المال وطرق استعماله ، ونبهاه لضرورة الامساك بالثروة للإمساك بالسلطة ، فمن يملك المال يملك عصب السلطة ، ولكي يستقر حكمهم عليهم بتأمين انتقال الثروة من يد تجار المدن السنة لأيدي مقربين طائفيين منهم ، وهكذا أصبح محمد هو المكلف بجمع الثروة والسيطرة عليها في ربوع الوطن كرصيد تحتي للسلطة ، حتى خاطبه حافظ ذات مرة ممازحا عندما اشتكى رئيس الحكومة من عدم وجود ميزانية قائلا (دينهم شوي يا محمد) ، أما عندما أجاب عبد الرؤوف الكسم الذي تعرض للتوبيخ من حافظ ، أن البلد محكوم بالمافيات ، قال له حافظ أنت رئيس حكومة تصرف ، فقال له كيف أتصرف وبجانبك رئيس هؤلاء مشيرا لمحمد مخلوف ، عندها قال له حافظ قُبلت استقالتك ... وهكذا ، لم تندلع الثورة قبل أن أصبحت حصة آل الأسد أكثر من نصف الناتج القومي لسورية ،

أحد أصدقاء حافظ منذ أيام الدراسة الاعدادية استدعاه وعينه مديرا لمرفأ اللاذقية ، بعد أن تذكر معه أيامهم الخوالي في مقعد الصف ، اشتغل الرجل بجد خدمة لصديقه ، فاستدعاه مرة أخرى وقال له ماذا تفعل يا مجنون ، قال أبذل كل جهدي لكي أكون عند حسن ظنكم ، قال له أنا وضعتك في هذا المكان لتستفيد ؟؟؟ تصوروا رئيس دولة يطلب من موظفيه الفساد ، هكذا حافظ كان يدير الدولة التي يرى أنها

بقرة حلوب سرعان ما ستموت ، فهو سورية وهو قائدها إلى الأبد، ليس لأنه يتوهم أنه سيعيش كثيرا بل لأنه بيقينه سيكون آخر رئيس سوري ، سورية لن تكون على قيد الحياة عند موته بالمقارنة مع حجم النزيف الذي أحدثه فيها ... وكذلك فهم كل أتباعه ومنتسبي حزب السلطة (البعث) نضالهم الوطني كتسابق على نهش جسد الوطن ، فكل من يسرق مليون يصنع تمثالا لحافظ ، وهو الوصف الذي وصفت به نظام الأسد عام 2001، وهي ذات الجملة التي حوكمت عليها في محكمة أمن الدولة العليا في ذات العام وسجنت ثلاث سنوات في المنفردات .

الحزب

يمكن وصف حافظ كفارس يركب الحزب ويرتدي درع الجيش لكنه يلوح بسيف الطائفة . ويقاتل مع العدو ضد وطنه .

لم يكن حزب البعث موجودا يوم حدث انقلاب ٨ آذار من قبل ضباط الريف وبدعم وتشجيع من عبد الناصر ، بعد نجاح الانقلاب الذي دبره في العراق ضد الملك الهاشمي وحكومة نوري السعيد ، قبل شهر واحد ، متأملا في تحقيق وحدة عربية شاملة بواسطة حركة الضباط الأحرار التي اتخذت طابعا قوميا ، لكن لا ضباط العراق ولا ضباط سورية الأحرار كانوا يريدون الوحدة بل السلطة ، الشعارات كانت مجرد ريش وأعلام لخداع الجماهير ،

حزب البعث في سورية كان قد سبق له وفشل في عقد مؤتمره في لبنان بعد أن حل نفسه بسبب الوحدة مع مصر ، ولم يكن موجودا عند انقلاب 8 آذار1963 ، من قام به هم ضباط الريف الذين تلقوا دعم مصري بحجة رغبتهم بالوحدة ، ضد ضباط المدن الذين انفصلوا عن مصر بعد تجربة مرة مع سلطة عبد الناصر الفاسدة المستبدة ، التي جلبت على سورية حكم المخابرات والجواسيس ونشرت الفساد والرشوة وجلبت معها المخدرات والجريمة والفقر ، وهكذا سُرّح ضباط المدن من الجيش ، لكن سرعان ما انقسم الانقلابيون الريفيون لقسمين: قسم يريد الوحدة مع مصر وأغلبهم سنة عرب من وسط وجنوب سورية ، وقسم لا يريد ذلك ومنهم ضباط خلب ، وهكذا حدث تمرد جاسم علوان وطرد من سورية نحو مصر ، وخسر الجيش طابعه الوطني نهائيا واتخذ طابعا طائفيا منذ ذلك الوقت ، عندها أي بعد حركة علوان صيف عام 1963 ، استدعي من المتحف شيء اسمه حزب البعث ووضع في الواجهة كحزب حاكم وليس انقلاب عسكري مؤقت ، وجيء بقياداته وضباطه المستريحين في بيوتهم بعد حله للقيادة التي لم يتمتعوا بها أبدا كونها شكلية ، وفتح باب الانتساب له ، فكل من سجل في الحزب هو طالب سلطة ولا علاقة له بالآيديولوجيا والشعارات ، وبعد التصفية الثانية لعدد كبير من الضباط السنة خاصة من حلب وحماه (اليمين العفن) بالانقلاب على أمين الحافظ 23شباط 1966 ، وتفريغ الجيش من آخر ما تبقى فيه من ضباط ذو كفاءة ، بدع ذلك الانقلاب بعام واحد حدثت حرب 67 التي قررت فيها السلطة الحاكمة بقدها وقديدها وباجتماع القيادتين القطرية والقومية اعلان سقوط القنيطرة قبل حصول أي هجوم بري اسرائيلي ، من أجل الضغط على مجلس الأمن لتشميل الجبهة السورية قرار وقف اطلاق النار . ولم يعترض على القرار يومها أحد ، لا من الحكومة ولا من الحزب ، بل فر الجيش كله من الجبهة كنهر من الخوف الذي ساق أمامه السكان ، وفرت الحكومة من دمشق وانتقلت لحمص ، وتجمع بقايا الجنود الفارين في مقر الفرقة الثالثة في القطيفة شمال دمشق بنحو 50 كم ، ولم يكن يقف شرطي واحد يدافع عن دمشق ، ولم يفكر أحد في الامساك بالسلطة التي فرغت منها العاصمة تماما .

هل حدث كل هذا بتخطيط من شخص اسمه حافظ الأسد صدر بيان اذاعي بتوقيعه يعلن سقوط القنيطرة ، ولماذا طالب وزير الخارجية ماخوس مجلس الأمن بوقف اطلاق النار على الجبهة السورية أيضا التي لم يكن فيها اشتباكات من أصله ، ولماذا لم يتحرك الآخرون ، الذين فقط بعد انقلاب حافظ عليهم في عام ١٩٧٠ نشروا الشائعات أنه هو من باع القنيطرة ، وكأنهم لم يكونوا في رأس السلطة ولم يكونوا قادرين على اعتقاله ومحاكمته أو تكذيب الخبر ، لقد استخدموا قضية الجولان بذات الطريقة التي استخدمها جناح حافظ وجديد ضد أمين الحافظ عندما ضخموا قضية الجاسوس كوهين واستخدموها لحرق خصومهم ، مع أنه لم يكن جاسوسا عسكريا بل مدنيا سياسيا اجتماعيا للتعرف على طبيعة نظام الحكم وعمل المباني الحكومية ، ولم يطلع على أي معلومات جدية عسكرية أدت لهزيمة حزيران ، لأن هزيمة حزيران حدثت من دون معارك وقبل اندلاعها أصلا ، وبقرار سياسي اتخذه البعث الذي أعدم الجاسوس وأخفى جثته وملفاته للتستر على الكذبة ، أين هي ملفات حرب ال 67 ... من دمرها وأخفاها أليس صلاح جديد ونور الأتاسي .

بعد الانهيار السريع للجيش المصري وانطفاء فقاعة عبد الناصر الزعيم القومي الذي (هزم ؟) دول عظمى في حرب القناة عام 1956، والذي توقع العرب أن يدك تل أبيب بصواريخ الناصر والقاهر والظاهر التي

هدد بها ، ورمي اليهود بالبحر ، أصيب الجميع بصدمة وانتشرت حالة ذعر هيستيرية في صفوف الجيش السوري ، أفقدته أي قدره على القتال وشلت أي تفكير في الصمود ، فجاء بلاغ سقوط القنيطرة الذي اذيع باسم وزير الدفاع ،بمثابة أمر بالفرار كالأرانب من الجبهة ، الذي حدث عفويا وفعليا بأمر أطلقه رئيس الأركان أحمد سويداني بالانسحاب الكيفي من الجبهة ، والهدف المتفق عليه في كل القيادة السورية مجتمعة هو اقناع الروس بحقيقة سقوط القنيطرة التي أنكرها مندوب الولايات المتحدة في مجلس الأمن ، فالهلع الهيستيري والخوف على كرسي السلطة هو الذي تسبب بسقوط القنيطرة ، واسرائيل لم تكن تفكر أو تخطط لفتح معركة مع سورية ، وهنا وبعد الحرب أعلن النظام السوري انتصاره لأنه لم يسقط ، فالأرض ليست مشكلة ، وهو ما تندر به دريد لحام ومحمد الماغوط ونهاد قلعي في مسرحياتهم الشهيرة التي شجعها حافظ وسمح بعرضها وتكرارها ليسخر من كل من كان يدير سورية يومها وهم في سجنهم ، ويضحك كثيرا من يضحك أخيرا.

كل من أخرجه حافظ من السلطة حاول رمي المسؤولية عن هزيمة 67 عليه وحده ، وفسر انتصار حافظ وتفوقه عليهم بدعم العدو الصهيوني له مقابل بيع القنيطرة ، يشرحون القضية بهذه البساطة التي تبرر ماحصل لهم وتغطي فشلهم المضحك المبكي، يفرطون في المبالغة بحجم المؤامرة وبقدرات اسرائيل وعملائها لتبرير هزيمتهم وضعفهم الذاتي أصلا ، قبل ساعات من اجتماع لمجلس الأمن بطلب عاجل من الوفد الروسي بعد وصول جيش الدفاع الاسرائيلي لقناة السويس وانفتاح طريقه نحو القاهرة التي كان بامكانه احتلالها بعد ساعات فقط ، صدر البيان الذي يعلن سقوط القنيطرة بتوقيع وزير الدفاع ، لكن لم يقرأه شخصيا ، من اذاعة دمشق وقد استمعت له بأذني ، ولم يعترض عليه أو يكذبه أحد ، لا نور الدين الأتاسي ولا صلاح جديد ولا يوسف زعيم ، ولا ابراهيم ماخوس ، ولا أحمد سويداني ، وزير الدفاع كان يومها مغمورا وغير معروف ولا يملك حصة في القرار أكثر من ٥٪ في سورية على أبعد تقدير . فكيف يحرك كل الجيش والشعب والحكومة ، وجميع من قدم من النازحين يومها وسكنوا المدارس في دمشق وريفها ، قالوا أنهم لم يشاهدوا قتالا بريا ، وأنهم خرجوا بعدما شاهدوا الجيش يفر تاركا سلاحه . وأن دخول الجيش الاسرائيلي حصل بعد عدة أيام من صدور قرار وقف اطلاق النار ، وتوقف حيث يريد هو .

في الواقع لقد خشي حافظ كثيرا من فتح خطوط مباشرة مع اسرائيل كونه ممن استخدم قضية كوهين ضد خصومه ، لذلك تأخر لما بعد حرب تشرين ودخول كيسنجر على خط التفاوض غير المباشر ، وأول محاولاته فتح خطوط غير مباشرة كانت عبر شاوشيسكو رومانيا ، حيث افتتح سفارة هناك كلف فيها وليد المعلم ، وهو من عائلة دمشقية ذات أصول يهودية ، وما يزال وليد في منصبه مسؤولا عن كل الملف السياسي مع اسرائيل حتى اليوم . أما الملف الأمني فقد كلف به محمد الخولي قائد المخابرات الجوية الأكثر حظوة عند حافظ ،والذي أزيح من منصبه بعد حادثة الهنداوي ، حيث أراد النظام الرد على انزال طائرة عبد الله الأحمر العائدة من ليبيا في تل أبيب متوقعين وجود عرفات على متنها ، فرتبت المخابرات الجوية عملية تفخيخ حقيبة لاسرائيلية عائدة لتل أبيب بواسطة عميلها الهنداوي في لندن ، لكنهم أبلغوا الموساد بذلك قبل صعودها للطائرة ، اعتبروها رسالة تحذير، هنا اعترضت بريطانيا على هكذا عمل ارهابي فوق أراضيها واعتقلت الهنداوي من السفارة السورية وطالبت باقالة الخولي ، وبعد ذلك ، أصبحت العلاقة مع اسرائيل تتم غالبا بواسطة بروكسي مخابراتي أوروبي ، ألماني وأحيانا فرنسي ... وذلك قبل شيوع أجهزة التواصل الشخصي الحديثة التي فتحت بوابة التواصل المباشر على أوسع أبوابه . كما يجري الآن .

سرعان ما حول حافظ دور البعث لمؤسسة مهتمة بشؤون الاحتفالات والدبكات والرقص في الشوارع ، وأفرغه تماما من دوره في السلطة ، لصالح المخابرات ، ولم يعقد مؤتمرا للحزب طيلة عشرين سنة ، فالحزب مجرد مطية ، راحلة ركنها في الاصطبل بعد وصوله للسلطة ، ولن يستخدمه إلا لتوريث ابنه فيما بعد ، حزب البعث أصلا هو عنوان من دون مضمون ، وكل شعار من شعاراته يطبق عكسه تماما ، إن كان وحدة أو حرية أو اشتراكية ، أو أمة عربية واحدة .. أما القوى التي أيدت جزئيا حركته التصحيحية كالحزب القومي الإشتراكي (جمال الأتاسي) والحزب الشيوعي بجناحيه (البكداشي ، والتابع لرياض الترك) فقد طلب منها الانضواء في جبهة وطنية تقدمية بشرط القبول المطلق بقيادة البعث الذي هو أمينه العام الدائم ، التي ثبتها دستوريا في المادة الثامنة ، فحافظ لا يمكنه التعامل مع شركاء ، وهكذا خاب أمل جمال الأتاسي بعد أن وقف على يمين حافظ عندما ألقى خطاب النصر ، توا بعد سجنه لرئيس الدولةد. نور الدين الأتاسي ابن عم جمال ، وهذا الحادث يعبر عن مقدار فعل التنافس والمنازعات الشخصية وتأثيرها في المواقف والاصطفافات السياسية ، وهي صفة طاغية على الحياة السياسية السورية إلى اليوم فالكل يخون الكل ويتنكر لهم ،

بعد رفض حافظ لمبدأ الشراكة انسحب من انسحب ، وبقي من بقي بشروط الأسد ، وعندما لاحظ عبد الغني قنوت أمام حافظ أن موقف سورية من حصار العراق غير مفهوم وغير مرحب به شعبيا ، قال له يا عبد

الغني نحن من يجب أن يقود الشعب أم الشعب من يجب أن يقودنا !!!. هذه هي نظرته للحكم والشعب والقيادة ، فليس هناك في ذهنه أي فكرة عن السلطات المنتخبة والمراقبة من قبل الجماهير التي يختزلونها في مجالس للتطبيل والتزمير للقائد الملهم ... الذي صار هو الوطن ، وصار الوطن مزرعة له ، والوطنية هي الولاء له ، وعكسها هو خيانة وطنية ، وهي التهمة التي حوكمت عليها أمام الجنايات المدنية بدمشق عام 2005 عندما عارضت الإستبداد ، وحكمت ب ١٢ سنة قضيت منها ست سنوات حتى اندلعت الثورة وأخرجتني ، واتهم بها كل من طالب بالديموقراطية وبسيادة الشعب وليس عبوديته للطغاة والفاسدين والخونة .

في عهد حافظ أصبح التمييز الطائفي ظاهرة طاغية ، وانقسم المجتمع لمستويين ، سيد وعبد ، علوي وسني ، فمجرد أن ترفع صوتك بلهجة علوية فأنت تربح أي معركة مع الآخرين أو حتى مع القانون وأجهزة الدولة . ولكي تحظى بميزات أكبر عليك التقرب من هؤلاء وتقليدهم ، صارت اللهجة الرسمية للسلطة وفي الجيش وفروع الأمن هي اللهجة العلوية ، التي طغت حتى في الفن والغناء ، والتي ستولد حقدا دفينا مضادا يظهر واضحا في ثورة الشعب على النظام التي كان وقودها فقراء العرب السنة فيما بعد .

الأخ :

بالنسبة لرفعت كان دوما في كنف أخيه الذي رباه ورعاه ، هو بمثابة والده أيضا ، أكبر طموحه أن يكون شريكا ومساعدا له ، ولم يكن يظهر أي نوع من التنافس أو الغيرة منه ، ولذلك كل صراع بينهما مسؤول عنه حافظ وليس رفعت كما يظن . فقد كان المقاتل والفارس عند أخيه كما يصف نفسه في مجلته (الفرسان) ، وقد استمد نفوذه في الجيش من دعم أخيه ، وعمل دوما على تدعيم سلطة أخيه ، فهو يعتبر نفسه اليد الضاربة له وقد شكل (كتائب الفرسان) سراياه للدفاع عن سلطة حافظ ، والبطش بكل من يفكر بالتطلع إليها ، وكان من بين القوة التي داهمت قصر أمين الحافظ واعتقاله ، وهو ما زاد حظوته عند سلطة شباط 1966 ، مما أعطى سراياه سلطات استثنائية فوق كل سلطة وفوق كل قانون، وهي البداية الأولى لفكرة التشبيح باستغلال النفوذ ،

مهمة رفعت كذراع أيمن لأخيه كانت أمنية بامتياز ، تمارس على مؤسسات الدولة أساسا ، وهي تكسير رؤوس كل مراكز القوى في الجيش والمؤسسات ، وإذلالهم ، ومنهم علي دوبا، وعلي حيدر الذي جرب مواجهته عدة مرات ، وشفيق الفياض ، ومصطفى طلاس وعبد الحليم خدام .... الذين تعمد إذلالهم مرارا وتكرارا وعلنا ، فقد كانوا مجرد أغبياء مرابعين يعملون عندهم، من وجهة نظر وتصور الثنائي حافظ ورفعت (حافظ مثّل الجزرة ، ورفعت مثّل العصا) ، وهذا ما جعل رفعت على عداء مع معظم النخبة العسكرية والسياسية المحيطة بحافظ الذي لم يتورع عن ضربهم ببعضهم ، بينما وجد رفعت في من هم خارج السلطة كتجار دمشق وشباب العلويين سندا اجتماعيا له ميزه عن السلطة بشبيحته الخاصين الذين زرعهم في كل مكان في الدولة ، وبنزعته لفتح الاقتصاد ووضع حد للسياسات الاشتراكية التي كانت تعني فقط تعقيدات بيروقراطية تتسبب بتدني الانتاج وجودته وافتقاد السلع وتعطيل المبادرة ، وجعله يبدو أحيانا بصفة معارض ليس لسلطة أخيه وسطوته ، بل لسياسات السلطة الاقتصادية وللمحيطين بأخيه كلهم تقريبا، الذين كانوا يمتدحون حافظ ويؤلهونه ويلومون أخيه ويحملونه كافة قذارة الحكم ، وهو ما سيستمر بعد خروجه من سورية حيث يعتبرونه مشكلة حافظ ، ويعتبر هو نفسه معارضا لنظام الحكم الفاسد ، وليس الاستبدادي ، من دون أن يصل به الأمر لمعارضة أخيه ولا مرة ، ولم يكن يستطيع أن يفكر يوما في منازعته على السلطة ، ولكن عندما مرض أخيه في خريف عام ١٩٨٣ وأوشك على الموت (كنت يومها أخدم كطبيب عسكري في الاتحاد الرياضي العسكري في الفيحاء ، بعد أن انتقلت إليها من حماه التي قضيت فيها طيلة عام 1982 ونيف)، اعتبر رفعت نفسه الوريث الشرعي للسلطة في حال وفاة أخيه ، وهكذا تنازع مع الضباط الآخرين المحيطين بحافظ الذين توحدوا ضده (مجموعة العليات : علي دوبا أصلان الصالح حيدر ... ومعهم شفيق الفياض وعدنان بدر حسن ... ومعظم ضباط الجيش والسياسيين) بينما تحصن رفعت في مقراته في المزة وقاسيون وكان قادرا على مواجهتهم جميعا بواسطة قواته المسلحة جيدا والمتمركزة في أهم النقاط الإستراتيجية ، واستخباراته التي تخترق كل القطعات والمؤسسات وتزرع فيها موالين لشخص رفعت الذي كان يسمى بالقائد ، بينما يسمى حافظ بالمعلم الأول ،

ولكنهوبمجرد أن تماثل حافظ للشفاء كان يكفي أن يذهب لأخيه وحيدا وينظر في وجه رفعت لكي يجعله يتنازل عن كل شيء وينفذ رغبة أخيه الذي هو بمثابة أب وقائد وأكثر من ذلك بالنسبة إليه ، لكنه سيبقى يعتبر أن أخاه قد أخطأ في التخلي عنه ، ثم أنه الأولى بوراثته حتى الآن ، من دون أن يشق العصا مع ابناء حافظ الذين لم يتورعوا عن رمي كل قذارة مرحلة ابيهم عليه وعن التنكيل بأتباعه ، بما فيه اتهامه بارتكاب

مجازر حماه منفردا والتي حدثت في شباط عام ١٩٨٢ ، بقرار من حافظ وبمشاركة كل وحدات الجيش وبقيادة رئيس الأركان ورئيس المخابرات العسكرية علي دوبا وعلي أصلان الذين لا يخفون العداء لرفعت ، بينما كان رفعت مستعدا في العاصمة لأي تمرد قد يفاجئهم طيلة فترة مذبحة حماه التي قادها الأمن العسكري بقيادة علي دوبا وأحمد عبود ، وغازي كنعان ويحيى زيدان ، وضباط الوحدات الخاصة التابعة لعلي حيدر وقائده هاشم معلا ، وبمشاركة آصف شوكت . وكلهم اشتركوا معا في محاولة انهاء رفعت وإخراجه بعد عام واحد من المجزرة المروعة التي ذهب ضحيتها ٤٣ آلف مدني ، كانوا ضحية حماقة الإخوان المسلمين وهمجية النظام .

أما عن مجزرة سجن تدمر27 حزيران 1980 فقد ارتكبها رفعت فعلا لكن ليس بقراره الخاص بل كان ينفذ قرار أخيه الذي وقع مرسوم الاعدام الخاص بالإخوان وهو في المشفى عشية محاولة اغتياله ، والذي صدر رسميا عن مجلس الشعب بعد أيام من المجزرة ، التي نفذها صهر رفعت معين ناصيف مع عشرات من عناصر سرايا الدفاع اعترف أحدهم بتفاصيل تلك العملية عندما ألقي القبض عليه في الأردن إثر محاولة اغتيال مضر بدران (أبو عماد) رئيس الاستخبارات والحكومة الأردنية الأسبق الذي كان على علم بكل تفاصيل الوضع في سورية كون أمه وزوجته سوريتان ودرس الاقتصاد في جامعاتها وعمل رئيسا للمخابرات العامة لقرابة عقد من الزمن .

بعد خروج رفعت من سورية بضمانة روسية ، أرسل حافظ معه ضابط يدفع تكاليف الإقامة في سويسرا ، ثم انتقل لفرنسا واسبانيا وصار يتلقى ميزانية كبيرة مباشرة ، وكلما تناقص الدعم عنه كان يطلق بعض التصريحات الكافية لإرسال الشيكات ، وكان دوما يقارن نفسه بأنيسة مخلوف ويقول شو أنا بجانب أنيسة أنا فقير جدا حدها ، قبض رفعت كثيرا ثمن خروجه (قبض من يد أخيه ومن السعودية ومن القذافي أيضا) وكان يوزع الرواتب على آلاف من اتباعه ، وحلت سريا الدفاع وتحولت لما يسمى بالحرس الجمهوري الذي يقوده حاليا ماهر ، واستثمر رفعت الكثير من ثروته في مشروع نفق المانش الذي انتهى للإفلاس ، لكنه احتفظ بكمية كبيرة من العقارات ، وبمصادر دخل لأتباعه في سورية أهمها مرفأ غير شرعي للتهريب في اللاذقية ، واستمر بصفته نائبا للرئيس يتمتع بالحصانة الديبلوماسية خارجيا ، فترة زمنية طويلة جدا ، حيث تعتبر أمواله تابعة للدولة السورية ومعفاة من الضرائب ، حتى قرر حافظ إغلاق هذا الملف قبل موته افساحا لتوريث الحكم لولده وقطع الطريق على أخيه، حينها قام بشار باقتحام مقرات ومرفأ جماعة رفعت في اللاذقية وأثخن فيهم ، مستغلا مرض والده الذي كان يدخل في شبه غيبوبة كل فترة ، وبتحريض مستمر من أمه وخاله مخلوف إخوان .

عندما عين حافظ وزيرا للدفاع عام 1966 طلب تعيين مدير مكتب له ، فأرسل له المكتب الخاص برئاسة مجلس الوزراء (م خ) بيروقراطيا قديما في الوزارة ، طلب حافظ منه طلبا غريبا فقال له سيدي هذا يخالف القانون وذكر له رقم وتاريخ... ، فطلب حافظ تغييره واستبداله بسليم دعبول الذي كان يخدم معه كضابط صف في القطعات الجوية ، فهو لا يعرف قانونا غير حافظ ، واستمر سليم إلى ما شاء حافظ وولده من بعده مديرا لمكتب الرئاسة .

اعتمد حافظ في حكمه على بطئه في اتخاذ القرار ، فقد كان يدرس طويلا جدا قراراته ، بل يتعمد التأخر فيها ما أمكنه ، فليس لديه من الذكاء ما يجعله يقرر بسرعة ، مستوى ذكاءه كشفت عنه خطاباته الطويلة الممجة ، ومقابلاته الصحفية التي أظهرت خواء كلماته من المعاني والفهم ، لكنه كان يصغي جيدا وطويلا ، وعندما يتحدث يتحدث بالتفاصيل المملة وطويلا جدا لدرجة الملل والتعب التي تشل قدرة محاوره على الرفض والاعتراض ، وعادة تنتهي إجتماعاته للاشيء ولا اتفاق ولا خلاف ، و دوما يتأخر ويتأخر في اتخاذ أي قرار حتى تتضح كل الأمور ، وأفضل قرار بالنسبة له هو عدم اتخاذ قرار ، فقد عجز عن اتخاذ قرار السلم مع اسرائيل عندما ذهب السادات للقدس ، وبقي مترددا حتى مماته معتمدا سياسة اللا حرب واللا سلم ، فاوض ولا توقع ، كما تأخر كثيرا في المشاركة في حرب الكويت ضد صدام بالرغم من أنه في حالة حرب دائمة معه مسبقا ، وتريث طويلا في فتح معركة مع الإخوان حتى أحرجته حادثة مدرسة المدفعية ، وتأخر حتى في فتح معركة حماه ، وانتظر طويلا حتى فتحها الإخوان أنفسهم ، ومع ذلك استمر في محاولات المهادنة معهم عبر اطلاق زعاماتهم والسماح لهم بمغادرة سورية (سعيد حوا زعيم التنظيم الذي اعتقله رفعت وسجنه في سجن خاص ثم أمن خروجه للأردن حيث مات فيها ، والكثير من زعاماتهم غادروا سورية بسيارات المسؤولين ومن بينهم خدام شخصيا ، نحو الأردن والعراق) وهو من سيشكل معهم جبهة الانقاذ عام 2008 ، لينسحبوا منها على أمل التفاهم مع النظام الذي تربطهم فيه أكثر من رابطة كأخوة أعداء بحسب رواية تولوستوي الأخوة كرامازوف .

حافظ كان محافظا ، ولم يكن متطرفا ولا متسرعا أبدا ، بل أنه أغلق القلم ووضعه في جيبه ولم يوقع على أي مرسوم ذو قيمة قرابة عشرين عاما من حكمه ، حتى أنه لم يعقد مؤتمرا للحزب خلالها ... ولو

كان على رأس السلطة عند اندلاع الثورة لقدم الكثير من التنازلات قبل أن يباشر بالقمع ، لكن ابنه كان مختلفا في بنيته النفسية ، وعقدة الضعف عنده كانت وراء ميله لردود الفعل الهوجاء . التي سارع لاتخاذها بناء على نصيحة والدته وأخيه الذين ذكروه بأن استقرار حكم أبيه مبني على مذبحة حماه ، وأن سورية يكفيها ٨ مليون لتكون مفيدة ، وكذلك نصيحة خاله مخلوف وأولاده ، وشاليش ونجيب وزمرتهم ، وهذا طبعا ترافق مع تشجيع ودعم إيراني مباشر من قاسم سليماني ومن حسن نصر الله ،

لم يستطع حافظ اتخاذ قرار بتنصيب ولده حتى مات رغم رغبته في ذلك ، وترك موضوع الإخراج لمن حوله وبشكل خاص لمصطفى طلاس ، ولخاله محمد مخلوف ، ونتذكر عدة محاولات حزبية تملقية لتنظيم مظاهرات شعبية مليونية في عموم المحافظات تطالبه بتعيين ولده خلفا له رسميا ، لكنه رفضها ... وبقي مترددا ، ولم يستطع اتخاذ قرار لأنه لا توجد موافقة دولية ولا ضمانات ، فهو لا يتحمل مسؤولية توريث الحكم التي تقع فعليا هلى الحرس القديم الذي لم يكن قادرا على الاستمرار من دون تحنيط حافظ أو استنساخه .

أنجب حافظ عدة أبناء منهم بشرى وباسل بصحة عقلية جيدة ، لكن البقية بشار وماهر ومجد كانوا يعانون من اضطرابات عصبية ونفسية بالغة ، ويبدو أن بشار قد تعرض بعد الولادة لنقص تروية دماغية أصاب جهازه العصبي ببعض الأضرار ، وكان باسل يدرك عيوب أخيه بشار ويحتقره ويطرده دوما مما تسبب بالمزيد من العقد والانكفاء عند بشار ، الذي أهمله والده أيضا واهتم بالتركيز فقط على باسل ،

الأولاد

عندما يتربى الطفل في القصر على يد الخدامات والحجاب ، تتعرض بنيته النفسية لتشوه كبير ، يتجلى في عدم ادارك عيوب الذات ، وعدم ادراك مشاعر الآخر ، فكل ما يقوم به جيد ومرحب به مهما كان ، والآخر لا يبدي أي ردة فعل سلبية تجاه أي سلوك يقوم به ابن المعلم ، وبحسب تحليل فرويد فإن الطفل الذي يولد يبدأ أولا بالتعرف على الآخر قبل الذات ، الآخر الذي يحتاجه الطفل بكل شيء ، ثم من خلال الآخر يبدأ بالتعرف على الذات وتمييزها عنه ، فيدرك الأنا والآخر (المرحلة الفوهية الفموية)، وبعد ذلك ينقسم الآخر لقسمين قسم محبوب وقسم مكروه ، يحاول الطفل إنكار وإلغاء القسم المكروه في الآخر ، ولكنه عندما يفشل ، يصبح عليه القبول بوجود قسم مكروه فيه يكرهه الآخر، فتنقسم الذات أيضا لقسم محبوب من الآخر وقسم مكروه (المرحلة الشرجية) ، وللتصالح مع الآخر يحاول التغلب على سلبياته بواسطة تشكيل أنا عليا حاكمة للتصرف بحيث تضبط الذات بما يتناسب مع المطلوب منها من قبل الآخر ، وهكذا يتصالح الطفل مع محيطه ، ويصبح له أنا عليا حاكمة ، وفوقها ضمير قيمي تسمح له بالانضمام للمجتمع الإنساني (مرحلة تشكل الأنا العليا) فوق الأنا وما ماتحتها من بنية ودوافع.

هنا يعجز ابن المسؤول عن اكتشاف القسم المكروه بداخله لأنه لا يواجه القسم المكروه في الآخر ، فلا تتكون عنده أنا عليا حاكمة ولا ضمير قيمي . ناهيك عن اعتباره للآخر مجرد أداة، وليس كائنا موازيا وندا ولكونه ينتصر دوما على الآخر المكروه فلا ضير من العدوان عليه واستخدام العنف ضده ، فلا عقاب ينتظره مهما فعل ولا هزيمة متوقعة أمامه ... لا يتعرض للجوع أو الفقر أو الحرمان أو الظلم أو العقوبة أو الانتقام ، ولا يشعر بقيمة الصداقة ولا ضرورة ضبط الذات ... هذا يحدث مع الجميع ، وهو صفة بكل أولاد حافظ والولد الأول لرفعت دريد ، وبدرجة ما أولاد بقية المسؤولين الذين تنشغل زوجاتهم عن تربية أطفالها وتترك ذلك للخدم والحجاب ، ثم تعزز المدارس النزعة العدوانية والغرور، بسلوك المدرسين الذي يمارسون التذلل أمام طلابهم الذين يعتبرون أنهم هم الحقيقة والعلم ، فما يقولونه دوما صحيح وعبقري، فيزدادون جهلا على جهل وحماقة ، وعنفا على إجرام . وهو ما يطبع سلوك ماهر بكل وضوح ، فهو شخص مهزوز جبان رعديد لا يجرؤ على النظر للكاميرا ، ولا السكن بغرفة فيها زوايا غير منظورة ، ولا النوم لوحده ، يتعمد وضع تمثال الساموراي خلفه ، ويستعمل سيفه أحيانا ليخفي خوفه الشديد بواسطة الافراط بالعنف والبطش ، أو يعالجه بالادمان على المخدرات التي قتلت أخوه مجد أيضا .

يضاف إلى هذه البنية العدوانية التوحدية أن بشار معطوب عصبيا وقدراته العقلية نصف منغولية ، فهو لا يستطيع الاستمرار في سلسلة الاستنتاج المنطقي أكثر من مرحلة واحدة مبسطة ، أي تتابع أو تعقيد في تسلسل الاستنتاج يجعله يضيع تماما ، عادة الاستنتاج المنطقي يتكون من ثلاثة حدود (أو جمل) : فعل وفاعل ومفعول ، يبدأ بالحد الأول كمقدمة كبرى ثم مقدمة صغرى وينتهي بنتيجة ، مثل أن نقول أن أحمد يقف تحت الشمس (1)، والشمس تسطع عند الصباح (2) ، فنستنتج أن أحمد يتدفأ (3) ، لكن الاستنتاج قد يكون أكثر تعقيدا أو مجازيا ، وربما يمر عبر عدة مراحل ، وهذا ما لا يستطيع بشار القيام به ، فعندما سأله الصحفي الأجنبي لماذا لا تستخدم حدودكم مع اسرائيل للرد من خلالها ، وتستخدم جنوب

لبنان بدلا عنها ، قال له ليس لي حدود مع اسرائيل ، واستدرك هذه (الحدود الحالية) ليست حدودنا (حدودنا محتلة) !!! فهو هنا لا يعترف بضم الجولان ،(ضاع تماما عن موضوع السؤال) ، رغبته بعدم الاعتراف بضم الجولان أدت وفق منطقه المبسط لانكار وجود حدود مع اسرائيل ، فالحدود هي المعترف بها فقط ، وعليه فإن رده من خلال الحدود الحالية هو اعتراف بها ، لذلك لا يرد عبرها ، لأنه لا يريد الاعتراف بها ... المنطق عنده متقطع ، فالشمس العنصر المشترك بين المقدمة الأولى والثانية التي تجعلنا نفهم ماذا يفعل أحمد ، قد تستبدل بالقمر عند بشار فيضيع الاستنتاج ، فكل استنتاج منفصل عن المقدمات ، ومنفصل عما سبقه ولحقه ، لذلك يصعب عليه التوصل لفكرة ونتيجة منطقية ، وبالتالي يفسر للصحفي عدم قدرته على الرد بشكل يعتقد أنه مقنع تماما ، مع أنه في الواقع يعبر عن خوفه الذي أرد إخفاءه بشكل مقنع بالنسبة له ، بواسطة استنتاج أنه لا يمكنه الرد من خلال حدود من دون الاعتراف بها .

أيضا اتهامه كل من يعارضه بالعمالة لاسرائيل ، طالما هو مقاوم ويقف في صف المقاومة ، فهذا يعني ضمنا أن من يخالفه هو عميل للعدو ، مهما كان سبب الخلاف ... كذلك اعتباره أن ما يحدث في سورية ليس ثورة ، فلو كانت ثورة لكان هو من يقوم بها ، ولأنه غير مشارك فيها (أو لأنها ضده) فهي ليست ثورة ، وهذا المنطق مقنع له بشكل كلي وكاف وهو ليس كذب يمارسه ...

كان من الصعب على الزوار الأجانب ادراك هذا الخلل المنطقي عند بشار لأن الترجمة تضيعه ، وعندما تحدث بلغة أجنبية ركيكة ، أيضا عزي ذلك لضعف القدرة اللغوية ، وهكذا لم ينكشف عيب بشار وعدم أهليته العقلية ، خاصة وأن بشار يجيد تمثيل دور الطبيب المتحضر اللطيف أمام الأجانب ، مع أنه لا يفقه في الطب شيئا ولا يعرف أين يوجد الكبد ، الأجانب الذين استغربوا وصفنا وتحليلنا لبنيته ونفسيته ، حتى قام بقتل الحريري عندها فقط كشفت أفعاله مقدار انخداعهم ، وهو ما تسبب عند شيراك الذي تبناه ودعمه طويلا بنوع من الجنون .

بدأ باسل مبكرا في بناء نفوذه ومجموعاته في الجيش ، وأيضا في الدولة ثم في الاقتصاد ، وأصبح لديه جهاز أمن خاص هو مخابرات القصر وشكل محكمة خاصة به هي محكمة الأمن الاقتصادي التي استخدمها كسيف مسلط على الجميع لاجبارهم على تقديم الطاعة له والمعلوم لابن خاله الذي رافقه دوما بما في ذلك حادث السيارة القاتل ، وهكذا بدا وكأنه سيصبح دكتاتور سورية القوي الذي لا يمكن السيطرة عليه بشكل يختلف عن الحال مع والده ، فهو ليس مدينا لأحد ، وهذا ما استوجب قتله بعملية خاصة مموهة جيدا من قبل مشغلي والده خوفا من خروجه عن السيطرة ، وللضغط على حافظ لتقديم تنازلات في ملفات أخرى كان مترددا في السير فيها من دون ضمانات لبقائه في السلطة وأولاده من بعده ، كشرط وضعه أمام كلينتون لتوقيع اتفاقية السلام ، طالما هي تتطلب اجراء انتخابات نيابية مرضيا عنها ، لتوقع سورية السلام مع اسرائيل كدولة وليس كطائفة وعصابة حاكمة . وهو ما أفشل جهود السلام في كل مرة .

بتشجيع من المتملقين حول حافظ تم وضع خيار بشار مكان أخيه ،(كلنا باسل)، وفشلت كل البرامج التي وضعت لتلميع بشار فقد كان مخيبا للآمال فعلا ، وفشل في الإمساك بأي ملف كلف به خاصة ملف لبنان حيث اصطدم بخدام مما اضطره لاستبعاده من الملف ، ثم اصطدم مع كنعان واستبدله برستم غزالة ، الذي سينسق معه بغباء وبشكل مفضوح عملية اغتيال الحريري ، التي اتهم بها كنعان أيضا ليعبر عن رغبته في كشف الحقائق في حال تم التحقيق معه خارج سورية ، وهو ما تسبب بقتله في مكتبه على يد ضباط القصر الجمهوري . ثم في قتل أخاغازي أيضا بعد أن أرسل تسجيلا لغازي كان قد أودعه عنده لدولة خليجية يوضح فيه تفاصيل عملية الاغتيال ، وتم التستر عليه حتى الآن من قبلها . وحور التحقيق ليطال مجموعة من حزب الله فقط ، وأجبر الحريري على زيارة قاتل والده مرغما ، وأعفي الأسد من مسؤوليته في اغتيال الحريري على أمل توقيع سلام ، لكنه تذكر نصيحة والده ، فلم يوقع .

خلال فترة مرض حافظ وتزايد غيابه عن الساحة كانت حرية حركة آل مخلوف تتوسع خاصة بعد أن طلب حافظ من رجالاته التنحي جانبا لافساح المجال لولده ورفاقه الشبان ، وهكذا استبعد علي دوبا وكبار الشخصيات العسكرية ، في آخر عام من حياة حافظ بدا أن محمد مخلوف هو من يدير الدولة على الأقل في الشأن الاقتصادي ، وهكذا تم عزل الزعبي وتسليم الحكومة لمصطفى ميرو لتمرير عقود ما كان الزعبي يرضى بتمريرها من دون توجيه خطي من حافظ ، كالخليوي والطائرات ، لكن ميرو تعاون بشكل مطلق معهم ، وعندما هدد الزعبي بفضحهم ، قاموا بقنصه على شرفة منزله مفبركين رواية انتحاره قبل موت حافظ بفترة بسيطة ، وعندما مات حافظ تحرك طلاس ومخلوف لتنفيذ توصية حافظ المشكوك فيها ، فهو لم يتخذ قراره قبل موته، وكان بمقدوره تنصيب ولده علنا ، لكنه لم يفعل ، هم أصحاب المصلحة في تنصيب بشار ككل أيتام حافظ الذين يشكل غيابه نهاية لوجودهم ، أما استبداله بأي شخص فسوف يطلق الحرب بينهم ، لذلك كان الحل الوحيد هو استنساخه ، وتوريث بشار ليستمر حافظ بالحكم من القبر ...

انتظرت الدول ما سيحصل في سورية بقلق ، واستنفرت دول عربية مجاورة ووضعت قواتها في حالة تأهب ، لكن تمرير السلطة من الأب للإبن بسهولة في جمهورية اشتهرت بالإضطراب السياسي ، استحق مباركة أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية التي باركت الانتقال السلس للسلطة ، وحضور جاك شيراك الذي تعامل مع بشار كولده ، وحاول تسويقه وتلميعه منذ ما قبل تسلمه للسلطة ، لكن بشار لم يكن يظهر كما هو حقيقة . فقد تعود خلال طفولته الكذب على والده وأمه وأخوه ، كان يحل كل مشاكله بالكذب ، وكذبه يمر لانشغالهم عنه ، بشار يكذب بسذاجة بالغة ويصدق نفسه عندما يكذب ويكاد يكون منفصلا عن الواقع ، ولا يميز بين الخيال والحقيقة يتخيل نفسه في لعبة أتاري ويعيش عالمه الخاص ، فقد نسي وتجاهل تحذيرات أولبرات من فتح أنابيب النفط مع العراق ، ثم تجاهل تحذيراتهم بعد احتلال العراق من ارسال مقاتلين للعراق ، وهكذا قام بقتل الحريري رغم ارسالهم تيري رد لارسون لتحذيره قبل أيام من الحادثة ، ثم أنكر ذلك تماما واقتنع في انكاره وصدقه ، بطريقة تشبه ما فعله سابقا ...

فقد سبق له وأطلق خطاب القسم الذي لم يفهمه ، ثم عاد عنه بعد برهة ، وبعد اعتقالنا سأله أحد الصحفيين الأجانب ألست أنت من دعوت في خطاب القسم لسماع الرأي الآخر ، فلماذا تعتقل جماعة ربيع دمشق والمنتديات ؟ ، أجابه صحيح دعوت لسماع الرأي الآخر ، لكنهم ظنوا أنهم هم الرأي الآخر ، وهذا غير صحيح ، نحن الرأي الآخر ....

فعلا يشكل التعامل مع بشار معضلة حقيقية لكل من يعرفه عن قرب ، حتى الإيراني والروسي يعانون منه اليوم ، فهو لا يعرف ماذا يقول ولا يتذكر مساء ما وعد به صباحا ، ويستطيع أن ينكر كل ما التزم به ، باعتبار الآخرين لم يفهموه ، في تصريحه ذات مرة عندما أساء التعبير واتهم اليهود بقتل المسيح أمام البابا ، قال لا يستطيع أحد تفسير كلامي غير أنا ، أي أنه يقول أشياء لا يفهمها لا هو ولا غيره ، ومتى شاء يقدم لنا تفسيره ، أما لماذا لا يكون تفسيره هو أيضا محكوم بذلك القانون والغموض وعدم القابلية للفهم ، لا هو يدري ولا نحن ... باختصار هو لا يفهم ما يقول ، ولا يريد أن يلتزم بأي معنى لأقواله ... وهذا ناجم عن تركيبة نفسية ركيكة وضعيفة غير واثقة من نفسها ، وغير قادرة على ادراك ما يحيط بها ، وصفه الصحفي الأمريكي في مجلة التايم (جو كلاين) بأنه قد فشل في ارتداء حذاء ابيه ، عندما نقل له سؤال حملته للصحفي الذي التقيته في دمشق عشية لقائه بالأسد في ربيع عام ٢٠٠٥ ، قلت له اسأله باسمي شخصيا ، قل له أنت طبيب وهو طبيب ، هو أرسل معي لك هذا السؤال : هو لا يعرف لماذا سجنته ثلاث سنوات ، فماذا أقول له ، أجابه بشار ليس أنا من سجنه ، النظام كبير ، يومها كتب جو كلاين : جواب ما كان أبوه ليقوله أبدا ، كيف تكون رئيس دولة وتصادق على أحكام محكمة أمن الدولة العليا شخصيا لكونها محكمة استثنائية ، وتقول ليس أنت من سجنه وأن النظام كبير وفلتان ولا تدري ماذا تفعل ، هل أنت رئيس .

وهكذا وبذات الطريقة أنكر تماما وجود ثورة عليه . ثم أنكر صور قيصر ، وقال للصحفية أين هؤلاء ، من هؤلاء ... هل هي صور حقيقية ، هل تعتقدون بشار مرتبط بالواقع ؟ ، هل قدرته على هذا الكذب المفضوح تعبر عن بلاهة حقيقية ؟؟

نظام الفساد والافساد والعبودية لإله الفساد الذي أسسه حافظ وسار عليه بشار ، ترافق مع نظام التشبيح الذي أطلقه وهندسه رفعت وتابعه ماهر ، والذي انتشر وشاع بين أبناء وأقرباء المسؤولين وضباط الجيش وعناصر الأمن خاصة من الطائفة العلوية ... لقد انتقل هؤلاء من بيئتهم الريفية البسيطة ، لبيئة مصطنعة مشوهة ، إما لفيلل ومنازل محروسة ومخدومة بالحجاب والسائقين والعساكر الحارسين لكبار المسؤولين ، أو لبيوت عشوائية فقيرة معدمة الخدمات والتنظيم في مستوطنات بنيت حول المدن تسود فيها شريعة الغاب ،

ومن أولاد هؤلاء وهؤلاء تكون جيش من الشبيحة الجهلة الفاقدين للقيم والأخلاق ، المجرمين الحاقدين النهمين لسلب واهانة واذلال كل من يقع في طريقهم ، وسيصبحون السند الأساسي لنظام الفساد ودعامته الأمنية خاصة بعد اندلاع الثورة ، ليرتكبوا أفظع الجرائم وأبشعها ،وليصرف عليهم رامي من جمعياته الخيرية والانسانية كما يدعي .

خلال عهد حافظ ورفعت كانت لديهم حساسية خاصة تجاه الفقر والعوز واضطهاد المرأة وبالنظر لعجز دولة الفساد التي يديرونها عن وضع برامج جدية ناجحة لمعالجة أزمات السكن والصحة والعمل والتعليم ، وجهوا لزيادة خدمات الدولة المجانية في صعيد الصحة والتعليم ، ولو كان على حساب النواعية ، وكذلك وجهوا للتساهل مع النشاطات الاقتصادية غير القانونية بما فيها التهريب والتهرب من الضريبة وسرقة الماء والكهرباء والبناء العشوائي في أملاك عامة وخاصة ، وحفر الآبار واقتطاع ممتلكات الدولة من قبل الفلاحين ، وأمر حافظ باستيعاب كل الحاصلين على الشهادة الثانوية في الجامعات ، مما أغرقها بعدد هائل من

الطلاب أدى لتدني سوية التعليم والتأهيل ، وأمر باستيعاب كل الخريجين الجامعيين في وظائف الدولة مما أرهق الدولة بعد هائل من العاطلين ، ولكن بالمجمل ساهم في نمو سريع للطبقة الوسطى وتوسع هائل فيها مترافق مع تدني النوعية وارتفاع البطالة المقنعة ، وهو ما يسمونه بالإزدهار .

ولكن في عهد بشار الذي تربى في القصور انقلبت السياسة وجرى التركيز على افقار هذه الطبقة ودفعها نحو البؤس لصالح حيتان الفساد الذين ابتلعوا كل شيء ، ورموا بغالبية الشعب لصعيد العوز والبؤس ، وهو ما هيأ القاعدة الاجتماعية للثورة عليه عام 2011 ، حيث تواجه فيها بشكل أساسي فقراء معدمون يعيشون مدن الصفيح ناقصي التعليم والتنظيم وقعوا أسرى التعصب الديني الارهابي المدعوم من دول الخليج ، مع شبيحة يعيشون في ظروف مشابهة من الجهل والحقد لكن مع انحطاط خلقي مضاف وقعوا أسرى التعصب الطائفي السلطوي المدعوم من ايران ، فكانت تلك الحرب من اقذر وأشرس ما شهده التاريخ .

الانهيار :

كنا نجبر على مشاهدة قناة تلفيزيونية واحدة تعمل عدة ساعات ، تبث نقلا مباشرا للخطاب التاريخي الذي يلقيه لساعات حافظ الأسد بصوته الممج على مدرج الجامعة أو صالة اتحاد العمال ، ثم يعاد بثها بعد نشرة الأخبار الأولى ، وما تكاد تنتهي حتى تذاع النشرة الثانية ويعاد بثها أيضا ، لتنتهي عندما يرفرف العلم معلنا نهاية البث ... لكن كل ذلك الحرص على غسل دماغ الشعب وانتاج جيل مدجن خاضع خانع يتنفس بأمر ويصفق بأمر ويرقص بأمر ويبكي عندما يموت الباسل بأمر ، لم تفلح ، فجيل الطلائع الذي رباه البعث في مدارس الطاعة والولاء والتأليه للفرد ، هو من قام بالتمرد عليه وتمزيق صوره وتحطيم تماثيله ... التي لن تعني اعادتها للمدن المدمرة سوى التذكير بموت تلك المرحلة ، وعقم محاولة احيائها ، فالتاريخ لا يعود للوراء . وكل ما جرى في سورية هو من الهول بمقدار يصعب على الأيام محوه ، وعلى الذكريات نسيانه ... عهد الأسد سيكون خالدا ليس بعظمة حافظ العهد الذي أمسكها جمهورية اشتراكية وسلمها اقطاعية وراثية ، بل سيكون خالدا باجرام بشار ولده الذي دمر كل سورية واستخدم كل آلة القتل والدمار ضد شعبه ، وزاد على ذلك بدعوة جيوش وقوى أجنبية ، فالأسد هو من دمر سورية الأسد ، سيذكره التاريخ كملك دمر مملكته ورئيس قتل شعبه مستعينا بأعدائه ... سيذكر التاريخ كيف جيء بهذا المعتوه القاصر ليحكم بلدا في مرحلة حرجة من تاريخها ، يتجلى بالحاجة للقفز من التخلف للحضارة ، فدفع بها للهاوية والدمار ...

بعد أن قابل الدكتور عارف دليلة بشار عام 2001 ، قال لنا مصيبة أنا محتار لماذا حافظ حاقد على الشعب السوري كل هذا الحقد ، الشعب السوري أعطاه ما لم يعطه لرجل قبله ، فكيف ينصب ولده وهو يعرف تماما أنه قاصر وعاجز وخرطبيلة ... كيف سيدير هذا الشخص الغير متزن سورية ، الله يستر .

بوتين أيضا بدأ يكتشف بشاعة هذا النظام وإجرامه ، بدءا من جنوده وشبيحته ومليشياته وصولا لرئيسه المعتوه المشوه ، فلم يتمكن من إخفاء مقدار احتقاره لبشار ونظامه الوضيع ، فقط الإيراني الخبيث ، عامله باحترام وتقدير ليحظى بتعاونه المطلق ، وهو ما جعل بشار يقع بسهولة في الحضن الإيراني ، الذي لا يطلب منه سوى الامعان بما هو فيه ، فسادا وقتلا وتهجيرا ، طالما أن ذلك يخدم مشروعه في السيطرة على سورية واحداث تغييرات ديموغرافية وثقافية غير قابلة للعودة فيها ، باستخدام أبشع الطرق في الدفاع عن نظامها الذي أسسه حافظ وطوره بشار كأفضل آلة لتدمير سورية .

، وكذلك بكل تأكيد زوجته أسماء ستشعر بذات الشعور من الخيبة والازدراء ، التي تخيلت أن الزواج من بشار سيجعل منها أميرة ، فاستعاضت عن الزوج المحب والمقنع كرجل ، بالمنصب والجاه ، واهتمت كثيرا بدورها كسيدة أولى بمنظر عارضة أزياء ، وبشراء المجوهرات وتكديسها ، وارسالها لوالدتها بحقائب ديبلوماسية احتجزتها الجمارك البريطانية واحتارت بأمرها عام 2005 عندما كنت هناك ، وكل ذلك للتعويض عن فقدان الرجل المحترم الذي يملأ العين ، تم ذلك الزواج المرتب مع أسماء الأخرس من قبل الاستخبارات الأجنبية ، بعد أن تدربت في شبكة الآغا خان (الواجهة الواسعة للمخابرات البريطانية في العالم الإسلامي) وأصبح بشار كوالده تحت وصاية هذه الاستخبارات الممثلة بزوجته ، فمن يراقبه ويضبط سلوكه ينام في سريره ، لكنه سيعاني منه كثيرا وسيفشل في السيطرة عليه ليس لضعف الوسيلة بل لغياب العقل فكيف تسيطر على معتوه ، سؤال سيشغل بال ال م أي سكس طويلا وقد لا يجد إجابة ، قبل أن تقتنع أن لا تتعامل مع المختلين عقليا.

سرعان ما اكتشفت أسماء قذارة البيت الذي انتقلت للعيش فيه ، واصطدمت بالأم والأخت ، وعانت من غباء الزوج وعتهه ، ولم يكن تجميعها للثروة والحلي كافيا لتعويضها عما فقدته ، فعاشت تعاسة عميقة تسببت لديها بالأمراض التي كان آخرها السرطان ، فعندما قامت الثورة وشاهدت قصص الجرائم واطلعت على تعليمات وتوجيهات زوجها ، فكرت بالفرار والعودة لبريطانيا ومهد لها ذلك السفير الخيمي هناك ، لكنها تفاجأت باحتجاز أولادها بالمطار من قبل ماهر وحزب الله ، فتخلت عن خيار الهروب وعادت مرغمة وأطلقت يد ذويها في نهب كل ما يستطيعون من هذا البناء الذاهب للخراب والحرق ، أسماء هي استاذة التعفيش الأكبر ليس لبيوت المواطنين الفارين من القصف ، بل من بيوت وقصور وخزانات حيتان السلطة والعائلة الغير كريمة ، بل تعفيش الدولة السورية كلها الذاهبة للانهيار ، وهي اليوم تنفذ مهمة الاستيلاء على الثروة وافلاس الدولة ، وقصقصة أجنحة بشار وأيديه ، وضربه بالمقربين حوله ، تمهيدا للفرار بالثروة والأولاد لتخرج من عالم العته والإباحة والجريمة والإهانة الذي وضعتها فيه أمها النهمة وجشع أبوها وخبث المخابرات البريطانية التي دربتها ، فهي لا تعتبر نفسها سورية أبدا ، ولم تعتبر سورية وطنها يوما ، بل هي بريطانية في مهمة مأجورة ، ولا يمكن تصديق وجود أي علاقة انسانية بينها وبين بشار الذي يتعمد اهانتها وخيانتها علنا في القصر ذاته والذي فضحته قصة بريده الإلكتروني وتدليعه من قبل لونا الشبل بالبطة ،

ليس أصعب من بيع الجسد بشكل دائم على الزوج والزوجة ، وهو ذات الشيء الذي حصل مع منال الجدعان التي هي أيضا تسلك ذات السلوك وبذات الدوافع وتكلف أخوها باسل بتهريب الثروة كتعويض عن شقائها ، وحصل مع آصف شوكت الذي باع جسده مقابل الحصول على الامتيازات ، والذي تخلى عن أسرته وأولاده ليسير في طريق الذل والعذاب والتناقضات المدمرة ، مقابل سلطة لم يتمتع بها أبدا ، بل أودت بحياته.

مع تسارع الأحداث التي تنبئ بنهاية عهد الأسد وتنامي حالة الاهتراء والتفكك ، وتزايد التهديدات بالمحاكمة والملاحقة ، ننتظر المشهد الأخير للسقوط ، الذي سيشبه مشهد سقوط كل المستبدين أمثال موسوليني وشاوشيسكو وزين العابدين ، أي الهروب الجبان المتناسب مع بنية نفسية هزيلة وتافهة ظهرت وتظهر واضحة على كل شخوص النظام ، جسدها بشكل واضح فيديو رامي الأخير الذي هو أصح تعبير عنها ، والذي وصفه فراس ابن رفعت بما يستحق . لم تظهر في الفيديو تفاهة وذل رامي فقط ، بل ظهر أيضا كيف يحاول افهام بشار حقيقة ما يجري حوله بأسلوب مناسب لمستوى عقل وذكاء بشار الذي يعرفه جيدا رامي ، والذي يؤكد أن بشار عاجز عن الفهم والتفكير المنطقي ، ويعتمد على الغريزة والمشاعر ،

أما بشار فسيستمر في تجاهل الواقع حتى يصحوا على صوت انفجار يودي بأحد المقربين له ، عندها سيفر بطائرته ويختفي في مكان مجهول ليموت بشكل غامض ، بشار لا يمكنك اقناعه ، بل يجب عليك التعامل مع أحاسيسه ، هكذا نصح علي مملوك منظومة الاستخبارات العالمية ، بشار يختفي ويتبدد ويفر عندما تشعره بالخوف ، ورامي يهرب بالمصاري لموسكو ، بينما ستعود أسماء مع أولادها وثروتها لحضن بريطانيا العظمى ، المخرج الحقيقي ، وكاتب سيناريو هذا العهد. تنفيذا لوعد وزير حكومة صاحبة الجلالة بلفور ، صاحبة الجلالة التي هي أيضا رئيسة الكنيسة التي تدعو للمحبة والإحسان والسلام ،

صحيح أن التخلف والجهل والفقر كان الأرضية لهذا الاستبداد لكن هذا الاستبداد ما كان ليكون بهذه البشاعة لولا تدخل خارجي بسيط ولكنه كاف ، لدفعشخصيات معقدة مجرمة متجردة من كل القيم للسلطة ، من قبل أجهزة مخابرات دول تدعي الحضارة وتروج لحقوق الإنسان ... المصيبة أن شعوب تلك الدول تصدق أن حكوماتها تنشر الحضارة والديموقراطية ، وتصدق ما ينقله اعلامهم المسيس عن صور الوحشية والإرهاب من دول العالم الآخر ، ولا يدركون أن ما يرونه هو انعكاس لسياسات حكوماتهم تجاه بلدان العالم الثالث التي يجب أن تبقى الممول الحقيقي لرفاهيتهم الكاذبة ،

والمصيبة الثانية أن العلويين في سورية يتوهمون أن نظام الأسد هو نظامهم وليس نظاما للتوحش والهمجية التي هي دمار لكل اجتماع انساني ، والثالثة أن اليهود ضحايا معاداة السامية الذين أحرقوا واضطهدوا عبر العالم يصدقون أن أبناء عمومتهم الساميون العرب هم عدوهم الأول وأن مساندة هكذا أنظمة متوحشة تحكمهم هي أفضل طريقة لبقاءهم آمنين يعيشون في المنطقة العربية ...ويتجاهلون تاريخا طويلا عاشوا فيه بسلام فيها ، كما عاش غيرهم من الأقليات القومية والدينية والمذهبية التي أصبحت أدوات لاختراق المنطقة والهيمنة عليها عبر استمرار النزاعات فيها .

ولكي لا يتكررعرض هذه المسرحية مرة أخرى بممثلين جدد ، وتأتي للسلطة شخصيات مريضة أخرى لتمارس عقدها على الشعب حتى لو جاءت من صفوف الثورة ، والتي لو باشرنا في تحليل بنيتها النفسية

لتبين لنا خليط عجيب من القهر والجهل وعقد النقص والتناقض وحب التسلط والفساد والإرهاب ، لو تمكنت من التعبير عن نفسها في سلطة مطلقة لاستمر ما يحدث في سورية من دون نهاية.

لكي لا نكرر مشاهد ذلك السيرك الدموي لا بد لسوريا من أحد أمرين : إما إقامة نظام ديموقراطي حقيقي فيه سلطة قانون ورقابة ومحاسبة وتداول سلطة ، أو نظام استبدادي ملكي بشرط أن يكون الملك قد تربى في مدارس ملكية بعيدا عن بلده يتعلم فيها كيف يكون ملكا حقيقيا وليس مدمرا لمملكته ، وبعد التأكد أنه ليس معتوها مجرما يمارس عقده النفسية وجنونه على شعبه ،

العهد الأسدي لا يمكن وصفه فقط بالاستبداد فهو كما وصفه خالد العظم ، استبداد لكن بلون الجريمة والجنون والوضاعة والعته ومركبات النقص والعقد النفسية .

عندما فتشوا دفاتري في السجن وجدوا قصيدة كتبتها عن بشار ، فطلب مني العقيد عدنان محمود رئيس فرع التحقيق بالأمن السياسي ، والمقدم أحمد كوسا نائبه أن أقرأها لهم بصوت مرتفع ، وقد قرأتها لهم بينما كانوا لا يخفون سرورهم لسماعها فهي في النهاية تقول ما لا يستطعون قوله ، وهي فرصة نادرة لهم لسماعها دون دفع الثمن ، ولكنهم لم يضيفوها لسجل الاتهام كي لا تنتشر وتتشيع ، وكلاهم عزل ودخل السجن بتهم فساد فيما بعد .

حالة لا عليها حسد
ولا منها شفاء أو رجاء
حالة قد طال بها الأمد
حالة لا ابتلاك الله في كبد

استطالت وطالت أربعين عاما
والد وما ولد
صامد وما صمد
خالد وما خلد
احاطوا حوله سفاحون حقراء
لولدت أني لم أعرف منهم أحد

حالة لا عليها حسد
ولا منها شفاء ولا فيها حرد
أن تعيش في بلد
يحكمه ولد
أول حرف من اسمه
بشار حافظ الأسد

سألني أحمد كوسا وعدنان محمود في نهاية التحقيق معي بداية عام 2002، لنفترض أنك تسلمت الحكم ماذا تفعل ببشار ، هل تحاكمه أم تسجنه أم تقتله ؟

قلت : اقدم له العلاج العقلي والنفسي في قفص زجاجي يعرض في ساحة بوابة الصالحية بجانب تمثال والده لكي تزوره الناس من كل المحافظات ومن كل الدول وتتعرف على تاريخ سورية .

.....

ما كتبته ليس تأريخا ولا دراسة ، إنه شهادة على ما عايشته ، قد تكون ناقصة وقد يكون فيها عيوب ، وقد تكون أحادية ، لكنها تجميع لما بقي في ذاكرتي من أحداث وتحليلات عن تلك المرحلة التي عايشتها بكل جوارحي جل عمري كله ، ألما وعرقا وعذابا وصبرا ونضالا وسجنا وتشردا وأملا ، وبالكاد أذكر ما قبلها وبالكاد سأرى ما بعدها . شهادة أتركها لأجيال أخرى ستتابع صناعة تاريخ سورية قلب العالم القديم ومهد الحضارات والديانات ... لكنني أعتبرها أيضا رسالة للأشقاء والأصدقاء الذين يتعبون أنفسهم بمحاولة اقناعنا بالتفاوض مع الأسد ، وقبول ترشحه لفترة جديدة . أو على الأقل المحافظة على نظامه ؟؟؟ أي عته .

استوكهولم 10/5/ 2020
كمال